الفكاهة في شعر عبد الحميد الديب

عبد الحميد الديب (١٨٩٨-١٩٤٣م) الذي لقب حياً وميتاً بشاعر البؤس هو واحد من أشهر الشعراء الصعاليك في القرن العشرين ، إذا أخذنا الصعلكة بمفهومها الحديث وهو : يعني التشرد وعدم الاستقرار النفسي والاجتماعي ، وضنك العيش ، والتصادم المستمر مع الحياة والأحياء .

أما المفهوم القديم للصعلكة الذي يعني قطع الطريق واغتيال ثروات الأغنياء لتوزيعها على المحتاجين كما كان يفعل الشعراء الصعاليك الأقدمون مثل عروة وتأبط شراً وغيرهم فلم يعد لها وجود .

على أن صعلكة عبد الحميد الديب وتشرده وحياته النكدة التي عاشها لا تعود إلى سبب واحد ، بل إلى سببين ، أولهما تلك النشأة الاجتماعية الخشنة التي جُوبه بها في طفولته ، فقد كان أبوه جزاراً قروياً فقيراً يعول أسرة كبيرة ، فلم يظفر شاعرنا بشيء من الاهتمام ولا ذاق طعم النعيم الذي كان يراه في حياة أثرياء قريته (كمشيش بالمنوفية) فهذا سبب خارج عن إرادته ، لأنه نشأ مرغماً في هذه الأسرة الفقيرة التي لابد له في اختيارها ، وإنما هي قدره الذي شاء له الله تعالى أن ينشأ فيه.

أما السبب الثاني لصعلكته فهو متعلق به هو ، فقد كان أبوه على الرغم من ضيق يده ، حريصاً على تعليم ابنه فلما أتم صاحبنا حفظ القرآن وتجويده في سن مبكرة أرسله – على عادة أهل الريف في ذلك الزمان – إلى المعهد الديني بالإسكندرية

حيث نال منه شهادته المتوسطة ثم أرسله أبوه إلى القاهرة بعد ذلك عام ١٩٢٠م ليستأنف تعليمه العالي في الأزهر، وهنا بدأ انحراف عبد الحميد الديب عن الطريق السويّ الذي سلكه نظراؤه من الذين سارت بهم مواكب الحياة سيرتها التقليدية فأتموا تعليمهم والتحقوا بوظائف حكومية كفلت لهم حياة كريمة .

ويبدو أن لنفسية الديب المتمردة ، وشخصيته الثائرة ، أثراً في تغيير مسار حياته ، فقد قضى شطراً من عمره في الأزهر ثم يمم شطر دار العلوم التي كانت آنذاك قبلة الأدباء ومحط رحال الشعراء والمبدعين ، غير أنه أكبّ على كتب الأدب والتراث في دار الكتب يلتهمها التهاماً ، وأهمل دراسته ، حتى التقى ذات يوم بالمطرب الشهير سيد درويش الذي أعجب بعبقرية صاحبنا فأخذه ليعيش معه في قصره الفخم ويشاطره حياته المترفة إلى أقصى حدود الترف .

وعاش صاحبنا مع سيد درويش لاهياً عن كل شيء إلا الفن والحياة الصاخبة ، فضيّع دراسته ، ومستقبله . ولم يطل به العهد بالنعيم فقد مات سيد درويش فجأة وهو في عنفوان الشباب عام ١٩٢٣م وطُرد صاحبنا من القصر الفخم إلى الشارع فاستأجر لنفسه غرفة حقيرة في حي الحسين الشعبي بالقاهرة وبدأت حياته مع التسكع والكدية والصعلكة على نحو استمر حتى وفاته عام ١٩٤٣م .

وقد يبدو التماس جوانب للفكاهة في حياة كئيبة كهذه الحياة ضرباً من المستحيل ، لكنّ ذلك في الحقيقة ليس مستحيلاً إذا استعان الباحث في شعر الديب بشيء من الصبر والأناة ، فمثل هذا الشاعر البائس المتمرد لا تخلو روحه من الدعابة والسخرية ، بل لعل السخرية من لوازم التمرد والتصعلك وهذا ما نلمسه في شعره

obeikandl.com

حين يصور لنا حياته البائسة في غرفته تلك الحقيرة التي عاش فيها والتي كانت تشبه جحراً بل كان يسميها (جحر الديب) وفيها يقول :

أفي غرفتي يا رب أم أنا في لحد ؟ ألا شدّ ما ألقى من الزمن الوغد
لقد كنت أرجو غرفة فأصبتها بناءً قديم العهد أضيق من لحدِّي
فأهدأ أنفاسي يكاد يهُدّها وأيسر لمس في بنايتها يُردي
أرى النمل يخشى الناس إلا بأرضها فأرجله أمضى من الصارم الهندي
تساكنني فيها الأفاعي جريئة وفي جوها الأمراض تفتك أو تعدي

ثم يصف أثاث هذه الغرفة وصفاً مضحكاً ، فهذا الأثاث ليس في حقيقته إلا شاعرنا نفسه !!

فهو لا يملك إلا معطفاً يفترشه صيفاً ويتغطى به شتاءً ، ويتخذ لنفسه وسائد من أوراق الصحف يغطي بها حجراً صلداً حتى يلين قليلاً ليصلح وسادة وهو في حياته هذه يشبه المهاتما غاندي الذي عزف عن متاع الدنيا الزائل وعاش زاهداً يقول الديب :

تراني بها كل الأثاث ، فمعطفي فراش لنومي أو وقاء من البرد
وأما وساداتي بها فجرائد تُجدَّد إذ تبلى على حجر صلد
تعلمت فيها صبر أيوب في الضنى وذقت هزال الجوع أكثر من غاندي

وعلى الرغم من هذه الحالة المزرية التي يقدم لنا فيها الشاعر صورة غرفته القذرة فإنه يحكي لنا عن تلك المعارك الضارية التي تشتعل أول كل شهر بينه وبين صاحب البيت بسبب أجرة البيت التي كانت ثمانين قرشاً هي بالنسبة لشاعرنا نكبة النكبات وأزمة الأزمات يقول الديب :

ثمانون قرشاً أهلكتني كأنها ... ثمانون ذنباً في سجل عذابي
طويت لها الدنيا سؤالاً وكُدية ... فما ظفرت نفسي ـ برد جواب
لُعنتَ كِراءَ البيت كم ذا أهنتني ... وأذللت كبري بين كل رحاب
لأجلك إما أن أبيع كرامتي ... وإما أفديها ببيع ثيابي
ففي كل شهر لي عواء بموقف ... يباعد عني أسرتي وصحابي
وطول ليالي الشهر يهتاج مضجعي ... مخافة رب البيت يغلق بابي
يطالبني في غلظة فأجيبه ... إجابة من يرجو يدا ويحابي
ألا سكن ملكي ولو بجهنم ... وأكفي من الأيام شر حسابي

ويصور لنا عبد الحميد الديب كيف كان صاحب البيت يهينه إذا تأخر في دفع كراء الغرفة ، ويعيره بفقره وبأن غرفته خالية من أي أثاثات يمكن الحجر عليها إذا ما شكاه صاحب الدار إلى الشرطة . فلا شيء يملكه الشاعر يمكن احتجازه رهناً مقابل الإيجار الضائع . وهذه المعايرة تتكرر أول كل شهر وشاعرنا لا يقف ساكناً ذليلاً ، وإنما يرد الكيل لصاحب الدار فيعيره بأن بيته حقير لا فرق بينه وبين القبر. وإذا كان في جيبه مال تعمد أن يضع يده في جيبه فيضرب بعضه

ببعض فما أن يسمع صاحب الدار رنين النقود حتى تنقلب حاله ، ويخف من غلوائه ويتودد إلى شاعرنا في لطف وحنو فيذكِّره بحب اليهود للمال وتكالبهم عليه يقول الديب :

صحوت على قصف الرياح وصوته ... وما أحدث الطرق الخليع من الجرس
يطالبني بالأجر في غيظ دائن ... تصيده المحتال بالثمن البخس
وقال يداري ظلمه : أي ضامن ... لسكني تعرت عن سرير وعن كرسي؟
أراك بها كل الأثاث ولا أرى ... سوى قلم ثاو على الأرض أو طرس
فقلت له : هذي جدودي كما ترى ... فما سكني في البيت بل أنا في رمس
وقلت معاذ الدين ما كنت مرة ... غريماً ولا أذللت يومي ولا أمسي

ويغوص الديب في النفس الإنسانية القذرة التي أعماها حب المال فسلبها الحس المرهف والإنسانية الشاعرة ، فإذا هي أما المال تنقلب من حال الذئب الضاري إلى حال الحمل الوديع :

وأخضع فقري كبره وثراءه ... وأي غنًى للمرء غير غنى النفس
إذا كانت السكنى بأجر مذلة ... فما أرحب المجان في غرف الحبس
فإني أرى فيها الطعام ، ولا أرى ... غريما يلاقيني بعارضة النحس
وإن لم أجد فيها الطعام ميسراً ... فإني رخي البال ...أطعم من حسي

وتأبى أقدار الحياة إلا من السخرية من شاعرنا فتسوق إلى غرفته تلك المتهالكة لصّاً يسرقها ، فلا يجد إلا لحافاً ممزقاً هو كل ما يملك شاعرنا من أسباب

obeikandl.com

النعيم ، فيبكي شاعرنا لحافه الوحيد فيقول ساخراً أنه لا يحزن على فقد اللحاف بقدر حزنه على هلهلة سمعته فاللحاف في حال لا تسر عدواً ولا حبيباً ، فهو يخشى الفضيحة إذا قيل : هذا لحاف إنسان !! ، ويعتب صاحبنا على اللص الذي يعتبره أخاً في المحنة ، وصديق شدة كان حرياً به – والحال كذلك – أن يرأف به ويترك له لحافه يقول الديب :

لحافي ،وهل غير الهباء لحافي ؟ بقية نسج دارس ونداف
أطاف به لص فقير كعيشتي فيا بؤسها من هجرة ومطاف
ولم أخش من ذا الرزء إلا فضيحتي بأني قد مُلِّكْتُ شر لحاف
فليتك يا لصي- الجريء وجدتني غنياً وسعدي في الحياة موافي
ويا ليتني ما كنت صيدك إنما سرقت لحافي جاهداً وشغافي
ويا ليتني دون اللحاف ضحية فإني صديق في الحياة موافي

ومن ألطف نماذج الفكاهة في شعر عبد الحميد الديب ، تلك المقطوعات التي هجا فيها بعض أصدقائه هجاءً مقذعاً استلهم فيه قول جرير : (إذا هجوتم فأضحكوا) ، فها هو ذا يصور لنا صديقه اللدود الشاعر الصحفي كامل الشناوي ببدانته المعروفة وهو يجلس جلسة صفاء وبجانبه غادة حسناء يحاول تقبيلها فتنفر منه لأنها أكرهت على مجالسته طمعاً في ماله أو في كأس تنالها في صحبته فيقول الديب واصفاً كامل الشناوي :

يصـــول عــــلى زجــــاج عبقـــري ... يكـــاد ببطنـــه الكـــبرى يـــلالي
وبـــين يديـــه واحـــدة العـــذارى ... شرى يـــدها بكـــأس أو بـــمال
تغمغـــــم إذ يقبلهــــا استيــــاءً ... لأن الفيـــل يعبـــث بالغـــزال

ويشجر خلاف بين شاعرنا وبين شيخ معمم أمام (بار اللواء) ينتهي بمعركة حاميذة بينهما يشتبكان فيها بالأيدي ثم تتمخض هذه المعركة عن قصيدة يهجو فيها شاعرنا ذلك الشيخ ويتخذ من العمة (= العمامة) التي يرتديها الشيوخ وسيلة للغمز في ذمة صاحبه فهو يتهمه بأنه فاسد الذمة ، يتخذ هذه العمامة مظهراً من مظاهر النفاق والنصب على الأبرياء بالرياء فهو يتكسب منها بالغش والزور وقد تبدلت بها حاله من الفقر المدقع إلى الغنى الفاحش :

عِمـــة تحتهـــا ضـــلال ولـــؤم ... وهـــي عـــش الخنـــا وبيـــت الـــداء
نســـجت مـــن ســـفاهة وفســـوق ... وعـــلى الخســـة انطـــوت والريـــاء
أطعمـــت ربهـــا زجاجـــاً حنيـــذا ... وســـقته " الكونيـــاك " بعـــد المـــاء

ويدافع صديقاه الشاعران كامل الشناوي وعلى محمود طه عن ذلك الشيخ بقصيدة يشتركان في تأليفها وينشرانها فيرد الديب عليهما ويمعق في وصف ذلك الشيخ وصفاً تهكمياً بليغاً فيقول :

خلـــيليَّ لم أظلـــم وإن بـــت ظـــافراً ... وقد تضعف الأضغان من كان قادراً
ألم تريـــا ذا الشـــيخ في طـــول نخلـــة؟ ... عـــريض القفـــا فينـــان كـــالفرع نـــاضراً
ألا لا تلومـــاني عـــلى صـــفع وجهـــه ... فـــذلك وجـــهٌ يقبـــل الصـــفع صـــاغراً

فقِـــدمًا رأينـــاه وللعـــين أختهـــا فأمسى مكان العين بالضرب شاغراً

على أن شاعرنا إذا هجا لم يكن في جميع الأحوال مضحكاً بل كان هجاؤه يصل أحياناً إلى حد من الغلظة كبير، فقد حدث أن زار أديباً كان وزيراً معروفاً في الأربعينيات، وكان مشهوراً بعطفه على الأدباء والشعراء، فلم يتمكن من مقابلته بسبب صاحب له غليظ القلب ساءه أن يدخل رجل زريّ الهيئة مثل الديب على سيده الوزير فاشتد ذلك على الديب فقال يهجو الوزير وخادمه في شعر لخفة الظل فيه :

قصـــدت إلى بابـــك الموصـــد فطـــوردتُ بالخـــادم الأســـود
غـــلام يمثـــل حظـــي لـــديك وقلبـــك في البيـــت والمعبـــد
كـــأني حـــين طلبـــت النـــدى إليـــك طلبـــت يـــد المعتـــدي
لقـــد عشـــت يـــا رب حتـــى رأيـــ ـــت من الناس أقسى من الجامد
فخـــذني إليـــك وأنـــت الكريـــ ـــم فقـد ضـقت بـالزمن الأنكـد
ولســـت أرى البـــؤس عـــاراً إذا رأيـــت إبـــائي بـــه مُســـعدي

ومن المواقف الفكهة الطريفة في حياة شاعرنا ذلك الموقف الذي صار فيه شاعرنا موضع سخرية ماجنة من صديقه الفنان سيد العقاد الذي وعده بسهرة ممتعة فسار معه في الطريق وفجأة تعلق العقاد بالترام بجواره فانطلق به، وترك شاعرنا مذهولاً فتلقفه صديقان له، فحكى لهما ما صنع به سيد العقاد فأخذاه ليطعماه ويسقياه، فلما وصلا إلى حجرة أحدهما ادعي الإفلاس وجمع له زجاجات

خمر فارغة ليرهنها عند (كركور) وهو صاحب خمارة كان معروفاً لهم ، ويشتري بالرهن طعاماً وشراباً ، ودسّ صديقه بين تلك الزجاجات زجاجة زيت خروع فارغة وقد اكتشف (كركور) الخدعة ومع ذلك فقد أعطى الديب ما أراد من مال فقال شاعرنا يذكر هذا الموقف :

وبعنا زجاجات الطِّلا بعد شربها ... لنظفر من أثمانها بكؤوس

فيوماً شربناها بعين وفضة ... ويوماً شربناها ببيع نفوس

وشِمنا من " العقاد " أنذل باخلٍ ... يضن لدى البلوى بنفل فلوس

جزى الله " كركوراً " معيناً فإنه ... أضاء ببشر الخمر ليل عبوسي

وبدل ماء الخلد حزني بشاشة ... ففارقني كربي وشدة بوسي

وهكذا عاش الديب بائساً ، ومات بائساً ، ولم يرحم أصدقاؤه هذا البؤس بل كانوا يتخذونه مادة للسخرية ، ووسيلة للاستهزاء ، وكان شاعرنا يبادلهم احتقاراً باحتقار ويرد على بذاءاتهم ببذاءات أشد لا نستطيع ذكر نماذج لها في هذا المقال ».

obeikandl.com